ملوك البترول

ركفلر

كان الشأن الاكبر في القرن الماضي للفحم الحجري لاعتماد المعامل والبواخر عليهِ . اما المعامل فبعضها لا يزال اعتمادهُ على الفحم والبعض الآخر صار اعتمادهُ على الكهربائية سواء كانت متولدة من الفحم او من انحدار الماء . واما السفن التجارية تجارية كانت او حربية فصار اكثر اعتمادها على البترول توقدهُ بدل الفحم وستقتصر كلها عليهِ في القريب العاجل على ما يظهر . واضيفت اليها السيارات والطيارات ولذلك صار البترول من الحاجيات التي لا يستغنى عنها . وهو ليس من المواد التي تزرع وتستغلُّ كالحبوب والاثمار فتولد البزرة مثلها ولا مما يتيسَّر الحصول عليهِ في اكثر الاماكن كالمياه والمعادن بل هو مما خُصَّت بهِ بعض الاراضي . ولذلك انصرفت همة الدول الحربية والتجارية الى امتلاك تلك الاراضي والاَّ تعتمد عليها وجود القوة المسيِّرة لاساطيلها البحرية والبرية والهوائية من البواخر والسيارات والطيارات

ولما كان العثور على الينابيع الغزيرة من البترول غير خاضع لارادة الانسان ولا هو مرتبط بقاعدة معلومة صار هذا العثور نوعاً من المضاربة فقد ينفق الباحث مالاً قليلاً فيصل بهِ الى غنىً وافر وقد ينفق ثروتهُ كلها ولا ينال شيئاً . وهذا لا يعني ان ليس في الاكتساب من البترول مجال للبحث والعمل المنتج فان ما يستنبط منهُ من الارض لابدَّ من تكريرهِ وتقطيرهِ على اساليب مختلفة حتى يصير صالحاً للاستعمال فيما يراد استعمالهُ لهُ وحتى يسهل نقلهُ من مكان الى آخر . والاعمال اللازمة لذلك اقتضت معارف اكبر العلماء وابرع المهندسين . فهو مادة طبيعية كالفحم الحجري والحديد ولكنها لا تصلح للاستعمال الاَّ بعد ما تعالج على اساليب شتى

واذا ذُكر ملوك البترول فاول من يخطر على البال منهم ركفلر الاميركي صاحب الملايين الكثيرة والمبرات الوافرة الذي اعطى ابنهُ مائة مليون جنيه ووهب المدارس والمكاتب والمستشفيات ونحوها مائة مليون اخرى ولم يزل في يدهِ ثروة طائلة لا يدري كيف ينفقها حتى يموت فقيراً . وها نحن موردون شيئاً من ترجمتهِ وما فيها من الاعمال التي تصلح ان تكون دستوراً لغيرهِ

ولد جون ركفلر بولاية نيويورك في ٨ يوليو سنة ١٨٣٩ وانتقل به ابوهُ الى كيفلند سنة ١٨٥٥ حيث نيط به مسك الدفاتر في بيت تجاري هناك وجُعل راتبهُ ٥٠٠ ريال في السنة . وحدث حينئذٍ امران كان لهما الشأن الاكبر فيما وصل اليهِ من الغنى الوافر . الاول ان صاحب ذلك البيت التجاري امرهُ ان يدفع لرجل ثمن ادوات صحية وضعها لهُ في بيتهِ فنظر في الاثمان المطلوبة لتلك الادوات فوجد انها مقدَّرة باكثر من ثمنها الحقيقي ولو قليلاً فابى دفعها نسرَّ بهِ صاحب البيت التجاري . وكان هذا شأنهُ في كل اعمالهِ التالية فانهُ كان ينظر في الجزئيات ويهتم بها كما يهتم بالكليات . والامر الثاني انهُ لما جمع من اجرتهِ ٨٠٠ ريال انشأ رجل اسمهُ كلارك وقال لهُ انهُ عازم على انشاء محل تجاري ويودُّ ان يشركهُ معهُ اذا اتاهُ بالفي ريال . فنظر في الامر واستحسنهُ وذهب الى ابيهِ وطلب منهُ ان يقرضهُ الف ريال فقال لهُ ابوهُ انهُ كان عازمًا ان يعطي كل ولد من اولادهِ الف ريال حينما يبلغ سن الرشد اما وهو لم يبلغ تلك السن (اي ٢١ سنة) فانهُ يعطيهِ الف الريال ديناً بربا عشرة في المائة . فرضي بذلك وتمَّت الصفقة على هذه الصورة وانشئ محل كلارك وركفلر . واخذُ ابيهِ الربا منهُ دليل على ما اتصف بهِ ذلك البيت من حسائهِ المعاملات المالية اساليب تجارية لا محل فيها للعواطف ومراعاة الخواطر

***

رأينا مصابيح البترول اول مرة في مدرسة الروم الارثوذكس الكبرى بسوق الغرب في لبنان سنة ١٨٦٤ فكنا نجلس للدرس في المساء والرائحة الخانقة تفوح منها ولا يمرُّ اسبوع الاَّ ويشتعل مصباح او اكثر من تلك المصابيح وينفجر فتخرج من غرف الدرس مذعورين لان البترول لم يكن يكرر كما يكرر الآن ولا كان ينقى من الشوائب التي كانت تخالطهُ ومن البنزين السريع الالتهاب . فان المكررين كانوا يحسبون البنزين نفاية لا فائدة منها فلا يعنون باستخلاصهِ . وكل ما يتعلق بالبترول من حين استنباطهِ من الارض الى ان يصل الى من يستعملهُ كان في حالة الاضطراب والتشويش حينما تناول ركفلر هذا الموضوع فعزم على اصلاح ذلك كلهِ واستخراج نوع من البترول يكون في جودتهِ مقياساً (ستندرد) يقاس غيرهُ عليهِ ومن ثم سميت شركتهُ الآتي ذكرها شركة ستندرد اويل اي شركة البترول الذي هو مقياس . وقد جعل الاقتصاد اساساً لاعماله مثال ذلك ان اغطية صفائح البترول كان الغطاء منها يلحم باربعين نقطة من القحام فوجد بعضهم ان تسعاً وثلاثين نقطة تكفي فجرى ركفلر على ذلك فبلغ ربح شركتهِ من اقتصاد نقطة واحدة من القحام

خمسين الف ريال في السنة . وكان خشب براميل البترول يقطع في الغابات ويؤتى به حالاً الى حيث تصنع البراميل منهُ فصار يتركهُ في الغابات حتى يجف بعد قطعهِ فيخف وزنهُ ويقتصد ربع نفقات نقلهِ

ولركفلر الفضل في انهُ ادخل في اعمال الشركات اسلوبين كان لهما شأن كبير في نجاحها الاول اسلوب الاحصاء فقد كان عمل شركتهِ حينئذٍ ابتياع البترول الخام من مستخرجيهِ وتكريرهُ وبيعهُ مكرراً وكان سعرهُ قبل تكريره يكتب ويعلق يومياً على جدران غرفة الانتظار في مكتبهِ كما تعلق اسعار القطن الآن في البورصة . وذات يوم دخل تلك الغرفة شاب اسمهُ بيس ورأى السعر منشوراً فاخذ ورقة وجعل يحسب نفقات تكرير الجالون من البترول نسبة الى ثمنهِ ورآهُ ركفلر حينئذٍ فأعجب بهِ واستخدمهُ لهذا العمل وانشأ فرعاً للاحصاء في معملهِ اي لحساب النفقات وهو فرع الاحصاء الذي يرى الآن في كل معمل واسع حسن الادارة . ثم لما اراد انشاء شركتهِ الكبيرة « ستندرد اويل كمپني » جعل هذا الشاب من مديريها وهو الذي ادخل بترول ركفلر الى الصين وناظر الشركات الاخرى في الشرق كلهِ . ولما توفي كان قد صار نائب رئيس الشركة

والاسلوب الثاني انشاء المطاعم للرؤساء والمديرين في المعامل نفسها ليتناولوا فيها طعام الظهر وغرضهُ من ذلك الاقتصاد في الوقت والاهتمام بامور الشركة فان الرؤساء والمديرين كانوا يضيعون جانباً كبيراً من الوقت في ذهابهم الى حيث يتناولون الغذاء فصار المطعم في المعمل نفسهِ وصاروا يجتمعون معاً ويدور حديثهم على مصلحة العمل . فالقليل الذي ينفق على طعامهم لا يوازي الاَّ جزءاً صغيراً من الربح الذي يربحهُ المعمل من النظر في امورهِ . وكان ركفلر وهو صاحب الشركة ومديرها لا يجلس على رأس المائدة بل بين سائر المديرين كأنهُ واحد منهم واعطى الرآسة لغيرهِ وكان عدد المديرين حينئذٍ ١٦ ولم يبق منهم الآن حيًّا الاَّ ركفلر

وانتقل مقرّ الشركة الى اماكن مختلفة حسب اتساعها وكانت غرفة المائدة ابهج غرف الاماكن التي انتقلت اليها ويدعى اليها اصدقاء المديرين والرؤساء ليتغدوا معهم ولا يقتصر الحديث فيها على ما يتعلق باشغال الشركة بل يتناول كثيراً من المواضيع الفكاهية فهي رابطة الالفة بين مديري الشركة وموسعي نطاقها وموفري مكاسبها

ولما انقسمت اعمال الشركة الى دوائر مختلفة صار لكل دائرة منها غرفة غداء خاصة بها والاساس الذي بني عليهِ هذا النظام هو ان المؤاكلة من اقوى وسائل الالفة بين الناس

والاسلوب الثالث انشاء مجلس الادارة حيث يجتمع المديرون كل يوم ويتذاكرون في مصالح الشركة فيصير كل واحد منهم على علم بكل الاعمال التي تتعاطاها

ودامت الحال على هذا المنوال وركفلر ينشئ شركات جديدة ويضمها في وغيرها الى شركته الاصلية ويسيطر عليها الى ان كانت سنة ١٩١١ فادُّعي عليه حينئذ ان في هذا الضمّ وهذه السيطرة احتكاراً غير جائز فحكمت المحكمة بتفريق هذه الشركات فافترقت واستغنى ركفلر حينئذٍ من ادارتها ومن ادارة شركته الاصلية لكن هذا الافتراق لم يضعفها بل زادها قوة وانتشاراً وزاد اعمالها اتساعاً وقد كان مجموع رؤوس اموالها ٢٧٥٠ مليون ريال سنة ١٩١١ فصار ٩٢٥٠ مليون ريال سنة ١٩٢٣ وكان لركفلر ٢٤٤٣٤٥ سهماً في شركته الاصلية وكان السهم منها يساوي ٦٥٠ ريالاً سنة ١٩١١ فقيمتها كلها كانت اقل من ١٥٩ مليون ريال فصارت قيمة السهم الآن ٣٥٠٠٠ ريال فتساوي كلها ٩٥٥ مليون ريال او نحو مائتي مليون جنيه

والراسخ في الاذهان ان ركفلر لا يملك الاّ اسهم البترول والحقيقة انهُ يملك اسهماً كثيرة في شركات سكك حديد ومناجم الحديد فثروتهُ بلغت اكثر من الف مليون ريال (مايتي مليون جنيه) لكنهُ انفق نحو نصفها في الاعمال النافعة كالمدارس والمكاتب وما اشبه

ومما جرى عليه في هباته انهُ لا يهب نقوداً بل اسهماً من شركاته ويبقي لمديري شركاته شيئاً من السيطرة عليها فتزيد قيمتها مع الزمن وتزيد قيمة هباته بها . مثال ذلك ان ثمن السهم في شركته القديمة كان ١٢٥ ريالاً سنة ١٨٩٣ فلو وهب مدرسة ٤٠٠ اسهم منها حينئذٍ اي ٥٠٠٠٠ ريال لصار ثمنها ١١٤٩٠٠٠ ريال سنة ١٩٢٣ وتكون المدرسة قد تناولت ربحاً في هذه السنين يبلغ ٧٢٢٠٠٠ ريال مع انهُ لو اعطاها ٥٠٠٠٠ ريال نقوداً لبقيت كما هي ولما زاد ربحها في هذه السنين على ١١٦٠٠٠ ريال

ولما استقال من الادارة العامة وقت افتراق الشركات صار لكل شركة مدير خاص يتولى شؤونها فنمت واتسعت فزادت قيمة ممتلكاتها اكثر من عشرين ضعفاً وهذا سبب الزيادة العظيمة في ثروته. وقد ثبت من ذلك ان اتحاد الشركات مفيد في بداءة الاعمال الى ان يتدرب المديرون على العمل ثم يصير الانفصال اصلح من الاتحاد